الفصل العاشر

هزيودوس

يعتبر هزيودوس أشهر الشعراء الذين ألفوا فى الشعر التعليمى . ولهذا ألحق باسمه ما ليس له كما عزى إلى هوميروس من الشعر الحماسى مالم يخطر له ببال . وسنحاول أن نطوف هنا بمنتجات هذا الشاعر على عجل ، ولكن بعد أن نلمع إلى حياته إلماعة سريعة .

(١) حياته

لدينا من المصادر عن حياة هزيودوس ثلاثة ، أولها رسالة عنوانها « مسابقة بين هزيودوس وهوميروس » ومؤلفها مجهول . وثانيها كتاب عنوانه « حياة هزيودوس » وقد عزى خطأ إلى پركلوس مع أن مؤلفه ـ فيما يظهر ـ كاتب يدعى : « تزيتزيس » . وثالثها مقالة فى كتاب « سويداس[1] » الذى كتب فيه عن كثير من الشعراء والكتاب القدماء ، وهذه المصادر الثلاثة إما اعتمدت على خرافات نسجها الشعب حول هذا الشاعر دون أن يكون لها من الصحة نصيب أصلاً ، أوْ لها منها نصيب ضئيل ، وإما اعتمدت على شعر هزيودوس نفسه ، وهذا الأخير هو أقرب المصادر إلى الحقيقة . ولهذا ينبغى الاعتماد عليه وحده دون الركون إلى تلك الوسائط الضعيفة التى لا ثقة فيها .

يحدثنا هزيودوس نفسه أن والده كان أول الأمر مقيماً فى مدينة « كيميه » بآسيا الصغرى فاضطره الفقر إلى الرحيل عنها فغادرها إلى « أسكرا » وهى مدينة صغيرة فى سفح جبل « هيليكون » فى مقاطعة ثيبا . وما دام لم يرد نص يثبت مولده فى مدينة أخرى ولم تتنازع إحدى المدن الإغريقية تلك المدينة الصغيرة شرف انتساب هزيودوس إليها ، فإن المؤرخين يرجحون أنه ولد بها وقضى حياته فيها ، وهم لا يعرفون بالضبط متى ولد ولا متى

---

(١) هو مؤرخ عاش فى القرن العاشر بعد المسيح .

توفى ، وإنما كل ما يستطيعون أن يقرروه هو أنه عاش فى أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن الثامن قبل المسيح ، وأن حياته المادية كانت شاقة متعبة ، وأنه كان له شقيق شرس مشاكس يدعى « پرسيس » كثيراً ما كان يؤذيه ويتعبه ، ولا يكاد والدهما يتوفى حتى يقتسما ما ورثهما إياه من ثروة متواضعة ، ولكن پرسيس حسود سفيه متلف لا يقنع بنصيبه الشرعى ، فيقاضى شقيقه ويرشو القضاة فيحكمون له ضده فيقتطع جانباً آخر من نصيب هزيودوس، غير أنه لا يلبث أن يركن إلى البطالة والكسل فيقذفا به بين براثن الفقر ينهش لحمه ويقضم عظامه ، ويضطره إلى العودة إلى مشاكسة أخيه تارة وإلى التسول منه تارة أخرى .

أما شاعرنا فيظل طول حياته يعمل بيديه فى زراعة ما أبقاه له شره شقيقه من نصيبه الضئيل ويعيش عيشة الكفاف مما تغله له هذه القطعة الصغيرة من الأرض التى كانت مقسمة إلى مزرعة قمح ومنحلة وحظيرة للأغنام ، وحديقة تحتوى عدداً من الأشجار المثمرة أهمها العنب والزيتون .

ينبئنا التاريخ بعد ذلك أنه كان شاعراً مجيداً ، وأنه ترفع عن أن يتخذ شعره وسيلة للاقتيات كما كانت أكثرية الشعراء تفعل إذ ذاك ، وأن هذه الخطة قد سمحت لشعره

[الصورة رقم ١٨ هى وعاء إغريقى يوجد فى متحف بريتيش بانجلترا ، وهو يمثل ثلاثة من الزراع يتعاونون على جنى ثمار الزيتون] .

بأن يكون غاية فى الحرية والصراحة ، فلا يبالى أن ينقد فى قسوة أو يهجو فى لذع من هم فى نظره جديرون بالنقد أو بالهجاء ، غير مقيد بعامل من العوامل أو ظرف من الظروف ، وكذلك أتاحت له وسيلة الترفع عن الاكتساب بشعره فرصة وضع بعض المعارف التى تثقف الشعب وتهذبه فى قصائده ، لأنه لو استغل شعره فى الاكتساب لألزمه ذلك سلوك خطة معينة يتحرى فيها إرضاء الذين يدرون عليه المال ومن حولهم من حواش وأتباع .

يحدثنا فصل من كتاب هزيودوس أنه ساهم فى مسابقة شعرية عامة عقدت فى جزيرة « أوبيه » بمناسبة تأبين الأمير أنفيداماس ، فأحرز فيها قصب السبق وتروى لنا رسالة « مسابقة هوميروس وهزيودوس » التى أشرنا إليها آنفاً أن هذه المسابقة قد عقدت بين شاعرنا وبين هوميروس ، وهذه خرافة ، وقد وضعها القدماء فى صف الأباطيل منذ عهد پلوترخيس ، بل إن هذا الأخير قد اتخذها ذريعة للطعن على قصة المسابقة كلها ، بل على الفصل الذى سجلها من كتاب « الأعمال والأيام » . وقد تبع « پلوترخيس » فى هذا المنطق كثيرٌ من النقاد المحدثين . ويرى الأستاذ كرواز يه أنهم يغالون فى هذا الحذر ، إذ أن إقحام اسم هوميروس فى القصة بدل اسم الشاعر الحقيقى لايقتضى الارتياب فيها لاسيما وأن الأمير « أنفيداماس » ـ فيما يبدو ـ شخص تاريخى .

أما قصة وفاة هذا الشاعر فقد رواها عدة مؤلفين بدون كبير اختلاف فيها . ومجملها ـ كما يحدثنا كتاب معزو إلى پلوترخيس عنوانه « مأدبة الحكماء السبعة » ـ أن هزيودوس كان فى ضيافة أحد الاكريين وكان يرافقه شخص يدعى « ميلِسْياس » فنشأت بين هذا الأخير وبين ابنة صاحب المنزل علاقة سيئة لم تلبث أن انكشفت لإخوتها فاتهموا هزيودوس بأنه كان يعرف سر هذه العلاقة ولم ينبئهم بها فتربصوا به حتى خرج هو وخادمه الأمين « تروئيلوس » فقتلوهما . ولا يبعد أن تكون هذه الرواية صحيحة إلى هنا ، ولكن المؤلف يأبى إلا أن يذيلها بأسطورة خيالية لطيفة فيحدثنا أن القاتلين لا يكادون يلقون بجثة هزيودوس فى البحر حتى يجتمع عليها قطيع من سمك الدلفين فيحملها إلى أحد

الشواطئ حيث كان الكريون مجتمعين يحتفلون بأحد الأعياد الدينية . وإذ يرونها يعرفونها فتثور ثائرتهم ويأخذون حالاً فى التنقيب عن القتلة حتى يهتدوا إليهم فيقتلوهم ويحرقوا منزلهم ثم يدفنوا جثمانه عندهم ، وبعد ذلك يأمر وحى ذلقيه بنقله إلى مدينة « أُرْخومينياً » حيث يشاهد پوسَنْياس المؤرخ قبره فى القرن الثانى بعد المسيح .

(ب) منتجاته أو الأعمال والأيام

ألحق القدماء باسم هزيودوس عدة مؤلفات منها : (١) الأعمال والأيام . (٢) التيوغونيا أو أسرة الآلهة . (٣) ترس هيركليت . (٤) قوائم شهيرات النساء ، وقائمة البشريات اللواتى كلف بهن الآلهة . (٥) رسالة فى التنبؤ بوساطة طيران الطير وتغريده . (٦) رسالة عنوانها « شروح على الخوارق » . (٧) رسالة فى التنجيم . (٨) « حكم خِيرون » وهى فى الأخلاق . ويحدثنا پوسَنْياس أنها تتألف من نصائح كان خِيرون قد أدب بها تلميذه أخيلوس ولا يستطيع أحد الاطمئنان إلى نسبة هذه القصائد ـ فيما عدا الأولى منها ـ إلى هزيودوس لأن الأربع الأخيرة منها قد فقدت ولم يبق لنا منها إلا عناوينها، أما التيوغونيا فقد دارحول نسبتها جدل كثير انتهى بترجيح عزو أكثرها إلى شاعرنا بصورة لا يكاد النقد الحديث المعتدل يعترض عليها ، وسنشير إلى ذلك النقاش فى موضعه عند حديثنا عن دوحة الآلهة .

١ — تلخيص هذه القصيدة وأقسامها

لا ريب أن أعظم منتجات هزيودوس الذى سما به إلى مرتبة أكابر الشعراء ووضعه فى الصف الأول بين معاصريه هو قصيدة الأعمال والأيام ، بل إن هذه القصيدة هى التى منحته سلطة الاستيلاء على عصره ، وطبعته بطابعه .

أنشأ المؤلف هذه القصيدة بنفس اللهجة التى أنشأ بها هوميروس قصيدتيه وأناشيده ، وهى مؤلفة من عناصر شديدة الاختلاف وإليك مجملها :

تتألف قصيدة الأعمال والأيام من ثمانمائة وثمانية وعشرين بيتا ، يشغل القسم الأول منها ثلثمائة واثنين وثمانين بيتا ، وقد عنى المؤلف فى هذا القسم بإجلال العمل والعدالة والثناء عليهما ، وهو يبتدى ـ فى الأبيات العشرة الأول ـ بدعوة عرائس الشعر إلى التغنى باسم زوس العادل ثم يصور لنا فيما يلى ذلك أى من البيت الحادى عشر إلى الحادى والأربعين أسطورة الإريسَين[1] الشقيقتين أو إلاهتى الغبطة والحسد ويبين لنا كيف أن الأولى مخصبة ، وأن الثانى مجدب قاحل لاينصح إلا بالظلم والشر .

وفيما بين الثانى والأربعين والخامس بعد المائة يحدثنا عن أسطورة پندوريه فيرسم لنا كيف أنها عند ما تفتح علبتها تفر منها جميع الآلام فتنتشر بين البشر ولا يبقى فى العلبة سوى الأمل .

وفيما بين السادس بعد المائة ، والأول بعد المائتين يبسط لنا أسطورة الأجناس الخمسة : الذهبى والفضى والنحاسى والبطلى والحديدى .

والروح الخلقية العامة التى تشع من هاتين الأسطورتين الأخيرتين يمكن إجمالها فى أن الآلهة قد فرضوا على الأناسى ذلك الناموس القاسى الذى يسمى ناموس العمل .

وفيما بين الثانى بعد المائتين والخامس والثمانين بعدها يشهدنا المؤلف أن الجائر معاقب دائماً بأمر زوس .

وفيما بين السادس والثمانين بعد المائتين ، والثانى والثمانين بعد الثلثمائة يغمرنا فى بحر من النصائح القوية الحاثة على العمل والشرف والعدالة .

ويتكون القسم الثانى من هذه القصيدة من ثلثمائة واثنى عشر بيتاً ، ويمكن تجزيؤه إلى جزءين .

فأولهما ـ وهو ما بين الثالث والثمانين بعد الثلثمائة ، والسابع عشر بعد الستمائة ـ يعنى بأعمال الحقول وما يتعلق بها من قريب أو من بعيد .

---

(١) الإيريسان مثنى ، مفرده إيريس ، وهو اسم للشقيقتين اللتين كانت إحداهما إلاهة الحسد ، والأخرى إلاهة الغبطة .

وثانيهما ـ وهو ما بين الثامن عشر بعد الستمائة ، والرابع والسبعين بعدها ـ يعنى بالملاحة ويحاول كشف أسرارها وخفاياها وإن لم يكن شاعرنا فنياً فى هذا الباب .

أما القسم الثالث ـ وهو ثمانية وستون بيتاً تشغل ما بين الخامس والتسعين بعد الستمائة ، والثانى والستين بعد السبعمائة ـ فهو يقتصر على تحديد واجبات المرء نحو الآخرين ونحو نفسه .

وأما القسم الرابع ـ وهو من البيت الثالث والستين بعد السبعمائة إلى آخر القصيدة ـ فينحصر فى ذكر الساعات السعيدة الصالحة لبدء الأعمال المختلفة .

ومن هذا يتبين أن عنوان هذه القصيدة لا ينطبق إلا على القسمين : الثانى والرابع منها وهما الخاصان بالأعمال والأيام كما يتبين أن تأليفها لم يكن فوضوياً أو إلى غير غاية محددة ، وإنما كان بناء متيناً محكماً تابعاً لمنهج قد رسمه المؤلف لنفسه قبل البدء فيها . ومن آيات ذلك أنه قبل أن يشرع فى بيان أعمال الحقول وفى إيضاح الأخلاق العملية قد عنى برسم الفكرة النظرية التى يتعقلها عن العمل وعن العدالة .

هذا هو الموجز الخاطف لهذه القصيدة العصماء ، والآن إليك إجمالها فى شىء من البيان :

ألقسم الأول

يتألف هذا القسم ـ كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ـ من عدة أجزاء يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر ، وإن كانت وحدة ضرورة العمل تربط بينها ربطاً كافياً لتحقيق التماسك .

وأياً ما كان فإن الشاعر يفتتح قصيدته بأنشودة فاتنة يدعو فيها عرائس الشعر وملهمات الفن الأدبى أن يشتركن معه فى الثناء على زوس رب العدالة العليا ثم يحدثنا عن أسطورة الإيريسين الشقيقتين اللتين أنجبهما الليل ووضع لهما اسماً واحداً فينبئنا بأن أولاهما ـ وهى شخصية الحسد ـ تمثل الشر وتدفع إلى الفحول والإجداب . وثانيتهما ـ وهى شخصية

الغبطة ـ تمثل الخير وتدعو إلى الخصوبة والإنتاج . و بيان ذلك أن الأولى تشغل قلب صاحبها فتلهيه عن كل عملٍ نافع ، والثانية تحرضه على النشاط والمثابرة لنيل المبتغى .

و بعد هذه الأسطورة ينتقل بنا المؤلف إلى أسطورة بروميثيوس و بَنْدوريه ، فيصور لنا فيها كيف أن الشر سلك طريقه إلى العالَم ، و بالتالى كيف أن العمل قد أصبح ضرورة من الضرورات وكيف ناء الألم بكلكله على كاهل الإنسانية ، فيروى لنا أن بروميثيوس ـ وهو ابن يابيتوس أحد التيتانوس ـ يصنع الإنسان من حمأ الأرض ثم يفكر فى كيفية تزويده بالحياة فلا يجد لذلك وسيلة إلا نار السماء فيسرق منها جزءاً و يستعمله فيما يريد ، فيحنق عليه زوس و يشرع فى معاقبته ، فيأمر « هيفِسْتوس » أن يخلق « بندوريه » وهى امرأة جميلة مستمتعة بجميع المواهب والميزات ثم يرسلها إلى الأرض ومعها علبة محتوية على جميع الآلام فتلتقى بـ « إيمِثيوس » وهو أول إنسان فيتزوجها و يستولى على العلبة التى معها ، ولا يكاد يفتحها حتى تفر منها الآلام وتنتشر على وجه الأرض ولا يبقى فيها سوى الأمل و بعد ذلك يروى لنا أسطورة الأجناس الخمسة ، وهى عبارة عن تاريخ خرافى يرسم لنا فيه كيف يهوى العالم شيئاً فشيئاً إلى الظلمات والبأساء ، وكيف يجب على الإنسان أن يقاوم هذا الشقاء الذى لا بد منه بالعمل المتواصل ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن خرافة البازى والبلبل التى تنتهى إلى إدانة العنف والحيف والعسف . وأخيراً يعقد موازنة مأساوية مؤثرة بين خير العدالة وشر العسف يختمها بطابع دينى يتحدث فيه عن الثلاثين ألف حارس الذين يجوبون الأرض بأمر زوس لمراقبة أفعال بنى الإنسان ثم يعقب على ذلك بنصائح هامة فى موضوعات مختلفة .

و يعلق النقاد على هذا القسم من القصيدة بأنه يمتاز بإبراز المبادىء الخلقية والآراء الفلسفية فى صور حية تأخذ بمجامع القلوب ولا تزول آثارها من الرؤوس فى سهولة بحيث يمكن أن يطلق عليه عنوان « الأخلاق النظرية عند هزيودوس » وهو مؤسس على دعائم ناموسين من النواميس الاجتماعية ، مرتبطين إلى حد عدم قابلية الانفصال ، وهما ضرورة العمل وواجب العدالة ، ومنشأ ارتباطهما واضح بسيط وهو أن من لا يعمل لا يعيش

إلا على حساب ظلم العاملين . وتعد هذه المبادىء خطوة أولى نحو الفلسفة الاجتماعية جديرة بأن تمنح منتجات هزيودوس مكاناً سامياً فى تاريخ الفكر كما أنها تنم عن وجود طليعة مجتمع جديد تسود فيه العدالة التى تحمى الضعفاء بعد أن تقتلع من فوق عرش الظلم ذلك القانون القديم الذى رأينا فى الإلياذة أنه ينادى بأن الحق للقوة وأن الويل للمنهزم ، وفى هذا يقول هزيودوس :

« أيها الملوك تأملوا أنتم أيضاً فى العدالة ! فعلى مقربة منكم ، وبين بنى الإنسان يوجد من الخالدين من يراقبون الأحكام الجائرة والأوامر التى تهيىء للإنسان اضطهاد أخيه الإنسان دون أن ينشغل الظالم بسخط الآلهة ، أجل يوجد على الارض المطعمة ثلاثون ألف خالد معينون من لدن زوس لمراقبة الفانين ، وهم يطوفون جميع بقاع الأرض ليلاحظوا — مزملين فى ثياب من الضباب — أوامر البشر وأعمالهم السيئة . . . خذوا حذركم وقوموا كلامكم أيها الملوك الذين يزدردون الهدايا وتخلوا إلى الأبد عن أوامركم الملتوية[1] » .

ومن خواص هذا القسم أيضاً أن المؤلف كثيراً ما يظهر فيه على المسرح وأن خصامه مع شقيقه هو مأتى عدة أجزاء منه . ومن آيات ذلك أن اسم هذا الأخير يتردد فى أبياته فى عدة مناسبات مقروناً بالشعور الذى كان يخالج نفس شقيقه بإزاء أخلاقه وتصرفاته .

القسم الثانى :

يبدأ المؤلف هذا القسم بمقدمة وجيزة يحدد فيها الوقت الذى يلزم للعمل فى الحقل ثم يتجه بعد ذلك إلى شقيقه الكسول بالنصيحة فى أسلوب جاف لاذع ، ولكنه يمثل الصراحة والإخلاص وتوقع الشر له فى المستقبل فيقول :

« لا أريد منذ الآن أن أمنحك ولا أن أعيرك ، فاعمل أيها المعتوه ، فإن العمل هو القانون الذى فرضه الآلهة على الأناسى ، وارهب يوماً ترفيه نفسك وزوجك وأولادك

(١) انظر البيت رقم ٢٤٩ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

حيارى مرهقين ، فتضطر إلى الالتجاء إلى جيرانك ، لتتسول منهم فيشيحوا عنك بوجوههم نعم من الممكن أن تنال منهم شيئاً مرتين أو ثلاثاً ، ولكنك إذا ضايقتهم كثيراً فيصبح ذلك عبثاً وستذهب كلماتك أدراج الرياح ، وإذ ذاك سيجودون عليك بالخطب العريضة . إستمع إلىّ وفكّر فى التخلص من ديونك وفى الاحتياط من الجوع[1] » .

و بعد هذه النصيحة يقدم إلى الزراع طائفة من النصائح العامة فى الزراعة وفى اختيار العمال ، ثم يأخذ فى سرد الأعمال الزراعية التى تتعاقب فى فصول السنة ، فيبدأ بأعمال فصل الخريف ، فيحدثنا عن بذر القمح ، و يقدم إلى الزراع بعض النصائح الفنية ، ولكن الطبيعة لا تلبث أن تَصُب الشتاء على البشر بمتاعبه وأحزانه . وهنا يرسم المؤلف لهذا الفصل لوحة قاتمة مزعجة يصف فيها رعوده و بروقه ، وعواصفه وأمطاره ، وقروره وثلوجه ، وظلمته وانقباض جميع العناصر فيه ، ثم يتبع هذا الوصف بتحذير الناس من أخطار هذا الفصل وعواقبه السيئة وما يكمن فيه من أمراض ، و يلح عليهم أن يدخروا من الأقوات ما يجعلهم فى مأمن من أيامه السيئة ، وأن يرتدوا من الملابس ما يقيهم شر برده القارس ، و بعد هذا العناء يحل فصل الربيع فتخضر الأرض ، وتورق الأشجار ، وتتضوع الزهور ، وتظهر الطيور ، وقصارى القول تستأنف الحياة العملية سيرها العادى . و إذ يصل المؤلف بالقارىء إلى فصل الصيف لا يعدد ما تقتضية الطبيعة فيه من أعمال ، و إنما يسرد ما تتطلبه هذه الأعمال من فضائل كتحمل التعب والحرارة ، وتجنب النعومة ، وعدم ادخار أى جهد فى العناية بالزراعة ، سواء أكان ذلك من جانب العمال أم من جانب المالك أو المشرف ، و بعد أن ينتهى من هذا يصف لنا السرور الذى يخالج النفوس عند قرب الحصاد ثم يتحدث إلينا عن قطف العنب حديثاً فنياً ممتعاً . وأخيراً يقدم إلى قرائه بعض نصائح تتصل بالملاحة ، ولكنها سطحية لا يكاد القارىء يطلع عليها حتى يحس بأنها صادرة عن مصدر غير فنى . وفى الواقع أن الملاحة لم تكن مهنة شاعرنا ، و إنما الذى حمله على معالجتها هو أنه

---

(١) انظر رقم ٣٩٦ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

كان يبغى أن يدرسها كل مزارع فيستطيع أن يبحر إلى البلاد الأجنبية متى شاء ليبيع منتجاته الزراعية .

ولا يعلق النقاد على هذا القسم بأكثر من أن أغلب فصوله مطبوعة بطابع هزيودوس وإن كان قد أضيف إليها فى العصور المتأخرة ما أضيف .

ألقسم الثالث

لا يتحدث المؤلف فى هذا القسم عن شقيقه ، وإنما هو يحتوى على نصائح وعظات تتفق مع حياة الريفيين الاجتماعية وتقاليدهم الدينية قد صيغت فى صور أمثلة جامعة ، وحكم مرشدة تتعلق بالزواج وببعض الصِّلات الاجتماعية أو الطقوس الدينية ، وليس من السهل جمع هذا الخليط من المواعظ تحت راية قسم معين ، أو وضعه تحت عنوان دقيق يحدد أنواعه.

ولكن الذى لا ريب فيه هو أنه مجموعة من الأخلاق العملية التى يمكن أن يقال عنها بوجه عام إنها لا تتنافى مع مبادئه النظرية ومثله العليا التى أسلفنا الإشارة إليها ، بيد أنه قد مزج بها لوناً من ألوان الروح النفعية ، وليس هذا عجيباً ولا شاذاً ، فهزيودوس ـ قبل أن يكون من دعاة الأخلاق المثالية ـ هو ريفى يتجه بتعاليمه إلى الريفيين الذين يعلم أن أول ما يوقظ حساسيتهم هو الجانب النفعى من الحياة ، وهو لهذا يخاطب فى مواطنيه العقلية النفعية فيقول :

« أدع الآلهة وتوسل إليهم بالقرابين والضحايا حين يجن الليل فتنام ، وحين يعود النور المقدس حتى يحتفظوا لك بالحظوة فى قلوبهم وتَحْبُوكَ أفكارُهُم فينجم عن هذا أن تشترى ضيعة الغير بدلاً من أن تبيع ضيعتك[1] » .

ومما يلوح من خلال أبيات هذا القسم أن شاعرنا قد فهم إلى حد الإعجاب تلك الروح القروية التى يمكن إجمالها فى أن الشخص الريفى يحصر الكرامة والعزة الإنسانيتين فى أن

(١) انظر البيت رقم ٣٣٦ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

يكون سيداً فى بيته ، وألا يكون مديناً لأحد .

ولا جرم أن من يفهم الحياة على هذا النحو تكون الفضائل التى تحتل الصف الأول فى رأيه هى النظام والاقتصاد وتأدية الأعمال فى أوقاتها المحددة ، وهو يوضح هذا فيقول عن الأول :

«إن النظام هو رأس الخيرات للفانين، و إن الفوضى هى أفدح الآلام[١]». وعن الثانى :

« إذا جمعت قليلاً إلى قليل وظللت على هذا النحو فى أغلب الأوقات ، فإن ذلك القليل سيصير كثيراً عما قريب[٢] » . وعن الثالث :

« لا تؤجل شيئاً إلى الغد أو إلى ما بعد الغد، فإن الذى يؤجل عمله لا يملأ أبداً مخزنه[٣] » .

و يعتقد النقاد أن هذا القسم قد أضيف إليه كما أضيف إلى غيره كثير من المنتحلات ، ولكنهم يعترفون أن من المتعذر عليهم تمييز هذا المضاف بطريقة ترضى العلم وتقنع البحث الصحيح .

القسم الرابع

يقصر المؤلف حديثه فى هذا القسم على إبانة الساعات السعيدة فى جميع أيام العام فيضع لها قائمة ، ويزعم أن أعمال كذا وكذا يجب أن تبدأ أو تتم فى ساعات كذا وكذا ، وأن نوعاً من الأعمال يجب أن يعمل فى ساعات معينة ، وآخر يجب أن يعمل فى ساعات أخر ، وهو فى كل هذا يستند إلى الحكمة الدينية الآتية من السماء إلى الأرض عن طريق الوحى ، و بهذا يعفى نفسه و يعفينا من إبانة الأسباب التى حملته على هذا التفريق .

---

(١) انظر البيت رقم ٤٧١ من « الأعمال والأيام » .
(٢) انظر رقم ٣٦٠ من نفس المرجع .
(٣) انظر رقم ٤١٠ من نفس المرجع .

وقد نقد الفيلسوف هيركليديس هذا الرأى وأخذ على هزيودوس تفريقه بين الأيام والساعات واعتبار بعضها سعيداً دون البعض الآخر ، ولم يفطن إلى أنها من طبيعة واحدة .

ويعلق الأستاذ كروازيه على هذا بأن مما يلفت النظر فى رأيه أنه يرى الحكمة العقلية تحمل هذه الحملة على الحكمة السماوية . ويرى غيره من النقاد المحدثين أن هذا القسم يشبه تقويماً عامياً خرافياً ، وأنه لا فائدة منه ألبتة إلا من حيث إنه يعطينا صورة واضحة لعقلية القدماء وخرافاتهم فى التشاؤم والتفاؤل .

٢ ـ كيف تكونت هذه القصيدة

قام الناقدون يبحثون حول تحقيق نسبة «الأعمال والأيام» إلى مؤلفها أو إلى غيره على نحو ما حدث بإزاء الإلياذة والأوديسا ، وقد انتهت هذه البحوث هنا كما انتهت هناك بالريب فى أصل هذه القصيدة وفى انفراد هزيودوس بتأليفها . ومن هؤلاء المرتابين العالمان الألمانيان « تيِسْتين »و« لِرْس » الأول فى سنة ١٨١٥ والثانى فى سنة ١٨٣٥ . ويبدو أن بحوثهما قد ألقت شيئاً من الضوء على هذه المسألة اهتدى النقاد بوساطة أشعته إلى أن أقلاماً متأخرة عن عصر هزيودوس قد امتدت إلى نصوصه فغيرت من معالمها وأصلحت منها وأضافت إليها . والذى يقبله الأستاذ كروازيه وأكثر النقاد العصريين من هذا هو أن القصيدة فى مجموعها وعلى صورتها الحالية تقريباً هى لهزيودوس ، وإنما أدخلت عليها تعديلات وإضافات أصبح من غير الممكن الآن تعيينها .

٣ ـ تحليل أدبى موجز

يمتاز شعر هزيودوس بالبساطة والدقة فى تصوير المبادئ الأخلاقية ، وبالإدراك العميق للعقيدة الدينية والتقاليد العرفية ، فأنت حيثما تنقلت بين أبيات قصيدته ألفيت القوة الإلاهية لها السيادة فى كل مكان تتصرف وتبت فى مصير الإنسانية كما يحلو لها ، نعم إنه لم يبتكر

هذه الآراء ، بل هى سابقة عليه بزمن بعيد ، ولكن الذى استحدثه فيها هو أنه ابتعد بالآلهة عن الأناسى وسما بهم عن مستواهم وأحاطهم بسياج من الأسرار . فبعد أن كنا نشاهد مثلاً آلهة هوميروس يظهرون لنا بهيئة واضحة ، ويتحدثون إلينا ، ويعملون على مرأى منا ومسمع ، وبالتالى يضيقون الهُوَّة التى تفصلهم عن الإنسانية ، أصبحنا الآن نراهم عند هزيودوس أقل ظهوراً على المسرح وأكثر غموضاً واختفاء عن الأعين والعقول ، وبالتالى أكثر عظمة وإرهاباً وإرعاباً .

فنحن لا نكاد نلمح الآلهة يظهرون للعيان فى شعر هزيودوس إلا قليلاً كما وقع ذلك مثلاً فى أسطورة بروميثيوس حيث نشاهدهم مجتمعين يتحاورون للوصول إلى تصميم محدد فى الأمر الذى يحز بهم على غرار ما كانوا يفعلون فى الإلياذة . أما فى الأكثرية الغالبة من قصيدة «الأعمال والأيام» فإننا نراهم يراقبون كل شىء بدقة واهتمام ، ولكن من وراء حجب لا تقوى الحواس الإنسانية على اختراقها .

يعنى هزيودوس إذاً بتصوير قوة الآلهة ونتائج أوامرهم وتصرفاتهم لا بإظهارهم على المسرح أو إعلانهم ما يصيبون به الإنسانية من خير أو شر ، وهو يصف هذا فيقول :

« إن الأمراض تصيبنا نهاراً أو ليلاً دون انتظار أى أمر ، وإنما تنزلق إلينا صامتة تحمل الألم لأن زوس الحكيم قد سلبها الكلام[1] » .

٤ ـ المبادىء الأخلاقية :

يعتبر النقاد أن تصوير هزيودوس الآلهة على هذا النحو خطوة منه نحو التجريد الفلسفى والسمو بالدين الهيلينى عن مستوى الطبيعة المادية ، ويتخذون هذا اللون من التأليف برهاناً على أن العقيدة قد أصبحت أكثر جدية وانعطافاً نحو الأخلاق العملية ، وإن شئت فقل : إن هزيودوس ـ بفضل عمله المستقيم ونفسه الصافية وفطرته السليمة ، وميله إلى الصلابة

(١) انظر رقم ١٠٢ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

واعتياده الأفعال الجدية ـ قد حول العقيدة القديمة إلى ناموس أخلاق ، أو أخضعها لخدمة العدالة التي هي عنده الشرط الأساسي للحياة الاجتماعية والتي يصور لنا صدارتها وقداستها بقوله :

« إن العدالة هي الناموس الذي فرضه ابن كرونوس[١] على الأناسي ، فمن الطبيعي أن السمك والوحوش والطيور التي تطير في الجو يأكل بعضها بعضاً ، لأن العدالة ليست لديها ، ولكن زوس منح الإنسان العدالة التي هي أول الخيرات له »[٢] .

تعلق هزيودوس بالعدالة إلى حد بعيد ، وجعلها الحجر الأساسي لأدبه وآرائه وأفعاله ولهذا لم يعن بأن يكون آلهته غَيْرِيِّين ولا رحماء ، وإنما عنى بأن يكونوا عدولاً وكفى . وقد خلق هذا المبدأ في نفسه قوة خلقية عظيمة ، وملأ قلبه ثقة بالناموس السماوي و بنجاح الهيئة الاجتماعية إذا أذعنت له . وفوق ذلك هو يؤمن بأن العدول سيكافئون بالسعادة ، وأن الظالمين سيعاقبون بالشقاء . وكثيراً ما تتردد هذه الفكرة بين سطور مؤلفة فيصف في إسهاب أمواج الآلام والكوارث التي تجتاح الإنسانية في هذا العصر الحديدي الذي يعيش فيه بسبب سيادة الحيف والعنف على أكثر نواحيه كما يرسم السعادة والهناء اللذين ينعمان العادلين المحبين للحق ، وهذا هو المثل الأعلى عنده ، فلا نراه يصعد إلى ما وراء العدالة من نبل أو غيرية أو فدائية أو غير ذلك من خصائص البطولة الفاتنة التي كنا نشاهدها في شعر هوميروس ، بل بالعكس هو لا يتحدث عن أولئك الأبطال القدماء إلا ليبين أنهم أساءوا التصرف في حياتهم فماتوا جميعاً موتات تعسة سيئة ، وهو إذا ذكرهم في شعره محوطين بشيء من الإجلال ، فإنما يفعل ذلك إرضاء للتقاليد الموروثة لا أكثر ولا أقل . وهو يمقت الحروب على اختلاف أنواعها ، وتباين ألوانها ، ولا يبرر شيئاً منها مهما كانت الدواعي الحاملة عليه ، و يعتقد أنها كلها شر يصبه الآلهة على الظالمين انتقاماً منهم . ويحس القارىء أنه لا يقر الأهواء التي كانت تستولي على أولئك القدماء الذين يدعونهم

---

(١) ابن كرونوس هو زوس .

(٢) من رقم ٢٧٦ إلى ٢٨٠ .

بالأبطال فتخرج بهم عن حد العقل ، ولا يتحمس لتلك المفاخر التى يعزونها إليهم ، والتى لم تجُرّ على أصحابها إلا الشر والسوء . وقصارى القول لم يكن الهدف الذى يرمى إليه هو المجد و إنما هو السعادة ، والسعادة فى رأيه هى غيبة الألم وخلو القلب من الهموم التى تعكر صفو الحياة . و إذا كان قد قضى حياته فى التبشير للنشاط ورفع راية العمل المتواصل ، فليس ذلك لأنه كان مغرماً بالكد والكدح ، أو لأنه كان يعزو إليهما قيمة خلقية ذاتية كما ترى الديانات السماوية ، و إنما العمل عنده ضرورة قاسية فرضها الآلهة ضمن ما فرضوه على بنى الإنسان لينتقموا منهم . و إذاً فالعمل جزء من البأساء الإنسانية الهائلة التى يحس بها هزيودوس إحساساً مشوباً بالمرارة يدل عليه هذا التعبير المأساوى :

« إن الأرض مليئة بالآلام والبحر مفعم بها »[1] .

بيد أنه مع هذا لم يكن متشائماً ولا يائساً ، و إنما كان متفائلاً مرحاً يتعلق بذلك القدر الضئيل من السرور الذى كانت حياته القاسية تسمح له بالأمل فيه ، وكان يؤيد تفاؤله ومرحه بقوله :

ما دام أن الآلهة قد نظموا الحياة على هذا النحو ، فينبغى أن يقبلها المرء كما هى ، وأن ينتزع منها بالقوة مالا تريد أن تعطيه إياه ، وليس لهذا إلا وسيلة واحدة وهى العمل وكان يرى أن العمل شرف ومجد ، كما أن البطالة ضعة وعار ، وهو فى هذا يقول :

« ينبغى أن تعمل دائماً ، لأن الرجل العاطل يقزز الأناسى والآلهة ، وهو مثل ذكر النحل الذى يسمن من عمل الإناث ، فكن أميناً على نصائحى ، حفيظاً لها يا شقيقى « پرسيس » تصر مثلى أنا ابن زوس ، واعمل بحماس لأجل أن يعاديك الفقر ، ولكى تعزك « ديميتير » ذات التاج الضاحك وتملأ خزانتك بالغلال »[2] .

وهنا يلمح النقاد وراء ذلك المثل المادى المحدود الذى يقدمه إلينا مثلاً آخر أسمى وأنبل

---

(٤) انظر البيت رقم ١٠١ .

(٥) انظر رقم ٢٩٨ وما بعده .

وأقرب إلى النفس منه إلى الحس وهو إرضاء الكرامة والعزة الإنسانيتين بكسبه سعادته عن طريق الذكاء والإرادة .

• ـ إستخدام الأساطير :

ولما كانت طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه تقتضى إلباس هذه المبادىء ثوباً أسطورياً فقد هيأت الأساطير الموروثة لشاعرنا منبعاً فياضاً يغترف منه ماشاء وكيف شاء فأحسن استخدامه والاستفادة منه على خير وجه ممكن ، فصاغ أهم تعاليمه صياغة أسطورية جديرة بامتلاك النفوس ، وتحدث عن الغبطة والحسد ، والعدل والجور ، والنشاط والكسل والوفاء بالعهد ، والحنث فى القسم ، وغير ذلك فى أسلوب أقصوصى رشيق ، فجاء كل ذلك غاية فى الحسن والفتنة . وهاك على سبيل النموذج شيئاً من تلك الأساطير الشيقة المشتملة على أسمى المبادىء الخلقية .

ألإيريسان الشقيقتان أو تشخيص الحسد والغبطة :

« كلا ، ليس حقاً أن تكون « إيريس » واحدة قد برزت إلى عالم النور ، وإنما هما شقيقتان باسم واحد تتيهان فى العالم ، إحداهما يجب أن يثنى عليها كل إنسان ذى عقل ، والأخرى جديرة باللوم . ولما تعارضتا فى كل شىء فقد اتجهتا إلى غايتين متضادتين ، فصار ما يروق إحداهما هو إعداد الحرب المشئومة والشقاق بسبب تعلقها بالشر ، ولا يوجد بين الأناسى من يحبها ، ولكن يجب عليهم قسر إرادتهم ، وبأمر الآلهة أن يقدموا التشريف إلى « إيريس » البشعة . أما الأخرى فإن الليل أنجبها أولاً وإن ابن كرونوس إلاه القمة قد مكن لها فى الأرض بين بنى الإنسان لتكون محسنة إليهم ، وإنها هى التى تمس الكسول نفسه فتوقظه للعمل ، وقد يحدث بفضلها أن يقع نظر رجل لا يعمل ، على آخر ثرى نشيط فيشرع فى الحال فى الحرث والإنبات ، ليقتاد البحبوحة إلى منزله . وقد

يتنافس الجار مع جاره بدافع التحمس للإثراء . هذه هى « إريس » التى تقدم الخير إلى بنى الإنسان »[١] .

لا ريب أن تشخيص هزيودوس الحسد والغبطة فى هاتين الشقيقتين على هذه الصورة الأخاذة آية من آيات عبقريته ومقدرته على التصوير وربط أجزاء الصورة التى يصورها بعروة وثيقة من الصلات التى لا يتحقق الانسجام بدونها .

رأى الشاعر هذين العاملين القويين : الحسد والغبطة يتنازعان بنى الإنسان بهيئة ذات أثر فعال فى حياتهم، يأكل الأول ذبالات قلوبهم ، ويملأ نفوسهم بالحسرة والألم ، ويلوّن وجوههم بصفرة شاحبة تشوك الناظر إليهم ويحول بينهم وبين القيام بالأعمال النافعة ، وتحفز الثانية هممهم على العمل وتضاعف نشاطهم وتشعرهم بالخجل من تأخرهم عن المتقدمين ، وقصورهم عن المتفوقين ، ثم أنعم الفكر فرأى أنهما كليهما صادران من مصدر واحد وهو الرغبة التى يوقظها فى نفوسنا منظر سعادة الآخرين ، فتتجه تارة نحو الخير فتكون غبطة ، وأخرى نحو الشر فتكون حسداً ، فلم يسعه إلا أن يتمثلهما فى شقيقتين أنجبتهما أم واحدة وهى الرغبة الإنسانية التى شخصها شاعرنا فى الليل ، ولعله أراد بذلك أيضاً الإشارة إلى غموض هذه الرغبة قبل وضوح إحدى العاطفتين كظلمة الليل قبل تنفس الصباح .

ذيكيه أو تشخيص العدالة :

إن ذيكيه بنة زوس هى عذراء وحولها يسود جو من الإجلال العذب بين الآلهة الذين يقطنون الأولمپوس ، وحينما يسىء إليها أحد بنى الإنسان بإهانة من إهانات الكذب أو الجور تبدو لنا فى تصوير هزيودوس كأنها إحدى أسيرات تروادة وقد هوت بعد اندحار ذويها وانحدارهم إلى حضيض الذل والهوان يعذبها خصوم متوحشون فلا يسمعها إلا الأنين تارة والعويل تارة أخرى ، ولرسم هذا يقول شاعرنا :

---

(١) انظر رقم ١١ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

« لا يكاد أحد الظالمين ينطق بالحكم الجائر حتى تسمع صرخات ذيكيه التى كأنها تسحب على وجهها فوق الأرض وتضرب بأيدى بنى الإنسان الذين يلتهمون الرشاوى ويحكمون دون اكتراث بالحق .

وعلى أثر ذلك تتعقبهم مولولة وتجتاز خلفهم المدن والقرى مختفية فى السحاب ، حاملة العقاب للأناسى الذين طردوها وزاولوا قسمة جائرة »[١] .

على أنها فى بعض الأحيان عند ما يسود الحيف البشرية « لا يسعها إلا أن تتجه على الفور إلى والدها زوس بن كرونوس فتجلس إلى جانبه وتصيح أمامه بأفكار الأناسى الجائرين ليعاقبهم »[٢] .

ويرى النقاد المحدثون أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الأقصوصة هو أن الشاعر قد منح ذيكيه عاطفة تتأثر تأثرين متضادين ، أحدهما حسن ينشأ من العدالة ، وثانيهما سيء ينشأ عن الجور ، ولم يقتصر — كما فعل غيره — على تصويرها إلاهة فاترة تقبض على الميزان لتزن الأفعال فى كفتيه بغير تأثر ولا اكتراث على نحو ما نرى عليه « تيميس » إلاهة العدالة فى أسطورة أخرى .

أسطورة بندوريه

« إن هيفستوس الماجد قد صنع من قايل من الأرض صورة شبيهة بفتاة حيية إذ هكذا شاءت إرادة ابن كرونوس . وإذ ذاك سارعت أثينيه ذات العينين الزرقاوين إليها فألبستها ونظمت لها ملابسها ووضعت « خاريتيه[٣] » حول جيدها عقوداً من ذهب ، ووضعت إلاهات الفصول ذوات الشعور الجميلة فوق رأسها تاجاً من زهور الربيع ، وقد تولت كل هذا

---

(١) انظر رقم ٢١٩ وما بعده .

(٢) انظر رقم ٢٥٦ ومابعده .

(٣) خاريتيه هى بنات زوس الثلاث ، وهن إلاهات الرشاقة اللواتى يتمثل فيهن كل أنواع الفتنة والإغراء .

«پالاس أثينيه» برشاقة ثم وضع رسول الآلهة « أرجيفُنْتِيس » فى صدرها الخداع والخطب المغرية وعقلاً محتالاً ، ثم أطلق عليها اسم «پندوريه» لأن جميع سكان الأولمپوس قد أودعوا فيها مواهبهم للقضاء على المَهَرَة من بنى الإنسان[١] » .

ويعلق بعض النقاد على هذه الأسطورة بأن هزيودوس قد غير معالمها ، إذ أن پندوريه فى الأسطورة القديمة تمثل الثروة التى تجذب الإنسان وتخدعه ، بينما هى هنا تمثل طبيعة المرأة وإغواءها الرجل بجمالها وزينتها وفتنتها وخطبها الساحرة ، وحيلها الماكرة ، سواء أأراد هزيودوس ذلك أم لم يرده .

أسطورة الأجناس الخمسة

أسلفنا حين أشرنا إلى القسم الأول من « الأعمال والأيام » أن هزيودوس يحدثنا عن أجناس الإنسانية الخمسة : الجنس الذهبى ، والجنس الفضى ، والجنس النحاسى ، والجنس البطلى ، والجنس الحديدى ، وهو يصف كل جنس من هذه الأجناس على النحو الذى يتخيله عليه . وإليك مايصور به بعض هذه الأجناس أو ما يقع فيها من مساوئ وشرور :

الجنس الذهبى

« إن البشر من الجنس الذهبى كانوا يحيون حياة الآلهة بمنأى عن العمل والألم ، وقلوبهم خالية من الهموم ، ولم تكن الشيخوخة المرهقة شاهرة سيفها فوق رؤوسهم ، وكانت أعضاؤهم تظل قوية إلى النهاية ، وكانوا يقضون أوقاتهم فى مآدب مرحة بعيدين عن جميع الآلام ، وعند ما يموتون يبدون كأنهم نائمون ، ولقد كانت كل ثرواتهم تحت تصرفاتهم ، وكانت الأرض الخصبة تمنحهم من نفسها الفواكه بوفرة ، وكانوا هادئين يقتسمون هذه الثروات فى سلام يحف بهم النعيم[٢] » .

---

(١) من رقم ٧٠ إلى ٨٢ .

(٢) من ١١٢ إلى ١١٩ .

الجنس الفضى

« خلق بعد ذلك سكان الأولمپوس عنصراً آخر أنزل من الأول وهو عنصر الجنس الفضى الذى لم يكن يوازى عنصر الجنس الأول جسماً ولا روحاً ، وكان كل كائن من هذا العنصر يظل مائة عام طفلاً محروماً من العقل يترعرع فى جوار والدته ويلعب فى منزلها وعند ما يحل الشباب لا يعيشون إلا قليلاً من الوقت متألمين على عدم تفكيرهم ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يمتنعوا عن تبادل العنف المتهور فيما بينهم ، ولم يكونوا يحترمون الآلهة أو يقدمون الضحايا على الهياكل كما يجب على الأناسى فعله اتباعاً للتقاليد ، فأبادهم زوس بن كرونوس لسخطه عليهم من عدم تبجيلهم الآلهة سكان الأولمپوس[1] » .

الجنس الحديدى

« إن الوالد لن يصير ، بعد ، والداً لأولاده ، والأبناء لن يكونوا أبناء ، وسيجحد الضيف الإكرام ، وسيخون الأصدقاء الصداقة ، وسيتخلى الشقيق عن أن يحب شقيقه كما كان ذلك فى الماضى ، ولا يكاد الوالدون يشيخون حتى يسبهم أبناؤهم ، ويسمعوهم كلمات قاسية وتأنيبات قارصة ، ولن يعود الاهتمام بالآلهة موجوداً ، ولا القوت للوالدين المسنين مدخراً ، وسيصير الحق فى كل مكان للقوة ، وستصبح المدائن نهباً وخراباً ، وسينعدم منذ الآن كل احترام للعهد والعدالة والخير ، وسيكون الشرف للرجل الشرير وللعنيف المتعجرف ، وان يكون لها من أدوات العدالة إلا أذرعة البطش ، ولن يحترما شيئاً ، وسيخطئ الشرير من هو خير منه بخطب منافقة يضيف إليها السباب . وبين هؤلاء الأناسى الأشقياء سيسود الحسد الشرير ذو الخطب المسممة ، يسود الحسدُ السعيدُ بالشر . وعند ذلك تغادر «أيدوس» و « نيميس » الأرض الواسعة وتصعدان نحو الأولمپوس وتختفيان وجههما المحبو بين تحت

---

(١) رقم ١٢٧ وما بعده .

نقابيهما البيضاوين وتهجران مثوى الأناسى لتأويا إلى مقر الآلهة ، ولن يبقى على الأرض غير الآلام الفظيعة ، وسيعم الشر فى كل مكان ، ولن يوجد الدواء فى أية بقعة من بقاع الأرض[1] » .

لم يصف هزيودوس فى هذا النص الجنس الحديدى كما وصف فى النصين السالفين الجنس الذهبى والجنس الفضى ، وإنما ساقه لتصوير نتائجه الرديئة وما سيقع منه من شر وسوء . وأبدع مافى هذه الأبيات هو تلك اللوحة الفاتنة التى يرسم لنا فيها هزيودوس « أيدوسَ » وهى شخصية الحياء ، و « نيميسيس » وهى شخصية الغضب للحق . تانك الإلاهتان اللتان إذ تريان الظلم والخِنث والوقاحة قد عمت الأرض وسادت الإنسانية ، لايسعهما إلا أن تضع كل منهما نقابها الأبيض على وجهها الجميل وتغادر الأرض محزونة مما تقع عليه عيناها ، وتلتجئ إلى الأولمپوس لتحتمى بسكانه الأقوياء من تلك المناظر البشعة .

ويعلق النقاد على أسطورة الأجناس هذه بأنها أسطورة قديمة أدخل عليها هزيودوس تحويرات شتى وأطلق فيها لقلمه العنان ، فأخذ يغير من معالمها ويبدل من معانيها ومراميها ماشاء له خياله الخصب ، ودفعته إليه حياته الشاقة ،وأرغمته عليه صِلاته المرهقة ، وأوحاه إليه عصره المضطرب المائج بمختلف العواطف وشتى الأحاسيس .

٦ — كلف الشاعر بالطبيعة

يكاد النقاد القدماء والمحدثون يجمعون على أن كل هذه الأساطير الشيقة وتلك النصائح النفيسة ، وهاتيك المعلومات القيمة التى تكتظ بها قصيدة الأعمال والأيام ليست هى مأتى فخر هزيودوس ولا مبعث مجده ، ولا منشأ افتتان جميع المثقفين منذ عصره إلى اليوم بشعره أو تعلقهم بمنتجاته ، وإنما مصدر هذا كله هو غرامه بالطبيعة وتصويره جمالها وسحرها وفتنتها .

---

(١) من رقم ١٨٢ إلى ٢٠١ .

نعم إن شعر هوميروس قد حوى كثيراً من أوصاف الطبيعة كما أسلفنا ، ولكن ذلك الشعر كان يقتصر على تصوير جلالها وعظموتها كالجبال الشاهقة ، والبحار الهائجة ، والعواصف المجتاحة ، والرعود المجلجلة ، والبروق الخاطفة ، والسحب المصطكة ، والسيول الهاطلة ، وما أشبه ذلك . أما شاعرنا فكانت عنايته بهذه الجلائل المروعة ثانوية ، و إنما الذى شغف بوصفه ، وكلف بتصويره على لوحة قصيدته هو الطبيعة الهادئة المتواضعة المدينة بحسنها وفتنتها ليد الإنسان ، والتى أحست بهذا الدين له فى عنقها ، فأخذت تكشف له عما تحت نقابها من جمال وسحر يبهران الأعين ، ويسران الأنفس ويأخذان بمجامع القلوب ، عسى أن تؤدى إليه بهذا بعض ماله عليها من يد طولى فتستوجب بذلك شهادة منه بعرفانها للجميل ، فجعل يسهب فى وصف الحقول وما يتعاقب عليها من ألوان متباينة بتباين الفصول ، وما يحل فيها و يرتحل عنها من جمال وسحر وابتسام وسرور تتلوها دمامة وانقباض ، وتجهم واكتئاب ، وما يتوالى على نباتها من طفولة فشباب فنضوج فشيخوخة ففناء . ثم يجد أن هذا أيضاً أكثر عمومية وشمولا فيضيق الدائرة ويحصر الاختصاص ، فيعكف على وصف حقول بلاده ، ومناخها وقسوة الجو وطغيان الشمس فيها ، وفقر الريفيين ومتاعبهم ، وشقاء العمال المتواصل فى سبيل الحصول على أقواتهم .

وفوق ذلك فإنه يفسح فى قصيدته مكاناً واسعاً للمعلومات الضرورية التى لاغنى للزارع عنها ، وللحديث عن أصناف النبات ومميزات بعض أنواعه عن البعض الآخر ، وخواص هذا الصنف أو ذاك منه ، وكيفية الوصول إلى حسن استغلال كل نوع وتحصيل أكبر فائدة منه . وليس هذا فحسب ، بل هو يرسم صفات بعض الحيوانات وطباعها وخواصها ومميزات بعضها عن بعض وماشا كل ذلك . وكأنه قد أحس بأن الشعراء الذين يهجرون الحقيقة ليرسموا الخيال هم على ضلال فى سيرهم ، ولو أنهم أنصفوا لشغلوا قصائدهم بصور الحقيقة القائمة ومناظرها الأليمة ، وصوروا ما نضيق به الحياة من أنواع المتاعب وألوان المشقات ، ورسموا ما تكتظ به من عبرات وتأوهات ، فجاءت أوصافه وتصويراته لوحات أمينة للحقيقة

فى أبهى صورها تارة ، وأبشع مناظرها تارة أخرى . ولا نكاد نجد من هذه المناظر ما تلوح عليه الصورة الخيالية فى مظهره إلا ذلك المنظر الذى وصف فيه الطبيعة فى فصل الشتاء . وهاك نموذجاً منه :

« فى أثناء شهر الناوون وفى الأيام السيئة المشئومة على الحيوانات ، كن على حذر واحتياط من الجليد الذى يسبب كثيراً من الهموم حينما يصفِّر « بوريه » على بُعدٍ من خلال الأرض ومن وراء مقاطعة « تيراس » التى تغذى الجياد ، والذى يندفع فوق البحر الواسع ، وإذ ذاك يملأ الأنين الأرض ، والغاباتُ وأشجار السنديان ذوات السيقان الضخمة والصنوبر السميك تصاب به فى حناجر الجبال فتسقط على الأرض الخصبة ، وهنا تصعد صرخات الغابات الهائلة نحو السماء[1] » .

---

(١) انظر رقم ٥٠٣ وما بعده .